العقل والنقل في الفكر الفلسفي المعاصر في مصر

د. أحمد جاد عبد الرازق

مدرس الفلسفة الإسلامية . دار العلوم

١. مدخل تاريخي :

تعد قضية العلاقة بين الوحي والعقل واحدة من أهم المشكلات في تاريخ الفكر الإنساني ، والصراع بين هذين القطبين الأساسيين يمتد ليشمل كل مجالات التفكير الديني الذي يعتمد على الوحي باعتباره أساسا للدين وطريقا لمعرفة أحكامه ، موجود كما هو الحال في اليهودية والمسيحية والإسلام على حد سواء [١] . وإن اختلفت طبيعة الحلول أو التفسيرات التي قدمها المتكلمون في الديانات الثلاث لطبيعة العلاقة بين العقل والوحي ودور كل منهما في تأسيس قواعد الإيمان الديني ، ما بين تقديم للعقل على السمع أو تقديم للسمع على العقل أو التوفيق بين صريح المعقول وصحيح المنقول . وفى الجملة فهي علاقة تعكس موقف المتكلمين في الأديان الكتابية من ضرورة تأسيس الدين على العقل والنص الديني معا أو البحث عن محتوى أو صيغة عقلية للإيمان في مواجهة الفلسفة [٢]

وفى العصور الوسطى المسيحية ــ التي تمثل المرحلة الثانية من تاريخ الفلسفة الغربية إذ كانت المرحلة الأولى هي الفلسفة الإغريقية أو المعجزة اليونانية ــ كما يسميها بعض الباحثين _ كانت القضية أكثر إلحاحا ،ولكن تضاءل فيها دور العقل إلى حد كبير ، وأصبحت أولية الإيمان المسيحي التي ترتكز على الوحي بمثابة الحقيقة المطلقة [٣] . ويعد فيلون الإسكندري " هو أول مفكر يهودي ارتأى أنه لا تناقض بين مفهوم الوحي المقدس وبين الفلسفة اليونانية ، فكلاهما

---

(١) See , A.J. Arberry , Revelation and Reason in Islam , P .1

(٢) See H .W. Wolfson , the Philosophy of the kalam p. 58.

(٣) See , Etienne Gilson , Reason and revelation in the.

حق "[١] ومن هنا يذهب البعض إلى أن علاقة الوحي بالعقل قد مرت بمراحل ثلاث : الأولى فيلون الإسكندري ، والثانية آباء الكنيسة ، والثالثة علم الكلام الإسلامي [٢] .

وقد بدأ آباء الكنسية اللاتين في القرن الثاني مهمتهم الأولى في الدفاع عن العقائد المسيحية ، عندما شكلت الغنوصية خطرا كبيرا على العقائد المسيحية ، نجد ذلك على نحو واضح لدى " ترتيليان " الذي عادى الفلسفة وأي محاولة لتعقيل المسيحية [٣] . ومنذ القرن الثالث ظهر نوع آخر من التفكير المسيحي في مدينة الإسكندرية التي كانت ملتقى للتفكير اليهودي والمسيحي واليوناني ، وقد انتشرت المسيحية في هذا العصر ، وبالتالي اتجه آباء الكنيسة إلى التكوين العقلي للعقائد المسيحية والدفاع عنها ضد مهاجميها ، فجاء كليمنت وأوريجين ، وعلى أيديهما نشأ التفسير الروحي للإنجيل ،ولقد حاول كل منهما إدخال الأفكار الفلسفية اليونانية في بنية العقيدة المسيحية ذاتها ، وبصفة خاصة أفكار أفلاطون ، وزينون والأفلاطونية المحدثة ذات الطابع الصوفي .[٤]

---

(1) See H.W. Wolfson ,

(2) OP. Cit , P. 720 Middle ages , P. 4 (2)

(3) See, Etienne Gilson OP.cit , PP . 8 - 11

(4) See , Norman Krezmann , The cambridge History of later Medieval philosophy . P.44, A. J. A reberry O.^ cit ,P.9

ولقد تعرض أوغسطين الذي يمثل قمة الفلسفة المسيحية في العصر الكنسي[١] لمسألة العلاقة بين الوحي والعقل ، موضحا أن العقل لا يستقل بذاته في إدراك الحقيقة بل لابد له من سلطة تحكمه ،هي الكتاب المقدس ، وهذه تعنى الإيمان به باعتباره أداة أساسية لتعقل الإيمان ، فلديه يجب ـ أولا ـ الإيمان بحقائق الوحي. ثم ـ ثانيا تعقلها وقد صاغ ذلك قائلا :

اعقل كي تؤمن ، وآمن كي تعقل . وهو يستعين في ذلك بعبارة وردت في سفر أشعياء : " إن لم تؤمنوا فلن تعقلوا " . ما كان النبي ليقول ذلك إذا لم يفرق بين الإيمان والعقل ، فأنا أومن بما أعقل ولكنني لا أعقل كل ما أومن به.[٢]

ويعد القديس أنسلم من أوائل المفكرين المسيحيين الذين اعتمدوا على سلطة الإيمان وحده ، فالإيمان باحث عن العقل ، فالبدء بالإيمان هو أول اكتشاف للحقيقة فالإيمان هو المعطى الأول للإنسان ،والعقل نفسه يفترض البدء بشيء آخر غيره ، وهو الإيمان ، إذ لابد له أن يعقل شيئا ، وقد نص الوحي على ضرورة التعقل ، فالإيمان يفترض التعقل [٣] . وهذا هو نفسه ما قرره أوغسطين

---

(1) See , Etienne Giloson op . cit , p . 16

حسن حنفي : نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط : أوغسطين ، أنسلم توما الاكويني :٤ القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٨.

(2) See ,Norman Kermann , OP.cit . PP. 17-24.

(3) See , Etienne Gilson OP . cit ., PP. 26-32.

من قبل . ومن هنا فإننا لا نجد كبير فرق بين كل من المدهبين في علاقة الوحي بالعقل ، إذ إن كلاً منهما يفترض الإيمان أولا ، ثم العقل ثانيا.

أما توما الإكويني الذي يعتبر قمة الفلسفة المدرسية في العصر الوسيط المتأخر فإنه يقرر أن العقل لا يطلب الإيمان ، بل الإيمان هو الذي يطلب العقل ، فهناك مجال للعقل وآخر للدين ، فأنا أقرر أن هذا الشيء حقيقي لأنني قد رأيته كذلك . وأنا أعتقد كذلك ــ أن هذا الشيء حقيقي ، لأن الله اعتقد ذلك ،وفى كلتا الحالتين ، فان قبولي لهذا الشيء أو ذاك يعتمد على حقيقتين مختلفتين ، الأولى الحقيقة العقلية أو العلمية ، والثانية الحقيقة الإيمانية الدينية .

وبالجملة ، فإن الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى ، وبصفة خاصة في مرحلتها المتأخرة ، عبرت عن الإيمان الديني الذي يقبل الحقائق اعتمادا على سلطة الوحي وحده على اعتبار أنه المصدر الوحيد للمعرفة الضرورية للإنسان[١]

ولدى المتكلمين المسلمين بدأت البحوث الكلامية معتمدة على العقل والنقل معا، وإن كانت نتائج الاستدلال العقلي لا تعتمد أحكاما نهائية إلا إذا صدق عليها الشرع ، والدراسة المتأنية لتطوير علم الكلام تؤكد هذه الحقيقة أيضا ، إذ تتراوح المدارس الكلامية في الجملة بين قطبي العقل والنقل ،وتتفاوت في مدى الاعتماد على كل منهما أو عليهما معا حسب طبيعة كل مدرسة وظروف تطورها[٢] .

ولقد أكد علماء الكلام أهمية النظر العقلي باعتباره أداة للمعارف الاعتقادية : فالقاضي عبد الجبار شيخ المعتزلة في القرن الرابع الهجري يذهب

---

(1) See Norman Krezmann . Oopp cit . pp . 459

(٢) أنظر . د. حسن الشافعي المدخل إلى دراسة علم الكلام ١٣٨

إلى أن الدلائل أربعة : حجة العقل ، والكتاب ، والسنة ، والإجماع ، ونجد مثل ذلك لدى الأشعرية [١] والماتريدية [٢] ، بل إن بعض المتكلمين ذهب إلى وجوب النظر العقلي في مسائل العقيدة وعدم الاكتفاء بالتقليد فيها والحق أن الاعتداد بالعقل والقبول بأحكامه في هذا المجال هو سمة المدارس الكلامية جميعا عدا طوائف الحشوية من أدعياء السلفية والنصية ، وما هم من السلفية والالتزام الحقيقي بالنصوص في شيء . ولقد أبان القاضي عبد الجبار عن فساد آراء الحشوية ، وكذلك ابن رشد .

أما الدليل النقلي فإن المعتزلة الذين رفعوا من مكانة العقل كادوا يسوون في أول أمرهم بين الدليل النقلي والعقلي ، فقد ذهب واصل بن عطاء إلى أن الحقيقة تدرك بحجة عقلية . ولقد كان ثمامة بن أشرس أول من قال بتقديم المعرفة العقلية على المعرفة السمعية .

ولقد ذهب المعتزلة إلى أن العقل أصل الشرع ، ومن هنا فلا يصح الاستدلال بالدليل السمعي على أية مسألة من المسائل الكلامية المتعلقة بوجود الله ــ تعالى ــ وصفاته وكل ما تتوقف عليه صحة النبوة ، وإلا صار الأصل فرعا ،وذلك دور باطل ، ومن هنا فإن الدليل السمعي يقتصر مجاله على السمعيات التي لا مجال للعقل فيها بالإضافة إلى المسائل التي لا يتوقف عليها إثبات صحة النبوة .

ولقد تسربت فكرة الدور الاعتزالية إلى متأخري الأشاعرة الذين اقتربوا كثيرا من الاتجاه الاعتزالي ، وبصفة خاصة لدى الرازي الذي يشكك في قدرة

---

(١) أنظر : الرازي : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين : ٤٠ .

(٢) أنظر : الماتريدي : كتاب التوحيد : ٨ .

الدليل السمعي على إفادة اليقين ، إذ يقول : " النقليات بأسرها مستندة إلى صدق الرسول ، فكل ما يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم به ، لا يمكن إثباته بالنقل ، وإلا لزم الدور . أما الذي لا يكون كذلك فكل ما كان خبرا بوقوع مالا يجب عقلا وقوعه كان الطريق إليه النقل ليس إلا ... والخارج عن القسمين يمكن إثباته بهما معا [١] ".

ولقد عبر ابن تيمية أوضح تعبير عن هذه القضية لدى الرازي ، قائلا : " إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية أو السمع والعقل أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية أو نحو ذلك ، فإما أن يجمع بينهما وهو محال ، لأنه جمع بين النقيضين ، وإما أن يردا جميعا ، وإما أن يقدم السمع وهو محال ، لأن العقل أصل النقل ، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحا في العقل الذي هو أصل النقل ، والقدح في أصل الشيء قدح فيه ، فكان تقديم النقل قدحا في النقل والعقل جميعا ، فوجب تقديم العقل ، ثم النقل ، إما أن يتأول وإما أن يفوض[٢] ". ولقد نقد ابن تيمية هذه الفكرة وبيّن تهافتها.

وبناء على هذا الموقف من الدليل العقلي وطبيعة علاقته بالدليل السمعي لدى متكلمي المعتزلة ومتأخري الأشاعرة ، انقسمت المسائل الكلامية إلى ثلاثة :

١ـ المسائل الأساسية التي تتوقف عليها صحة النبوة ـ أي مسائل العدل والتوحيد ـ فهذه لا يقبل فيها إلا الدليل العقلي .

٢ـ مسائل السمعيات كالثواب والعقاب ونحوهما ، لا يقبل إلا دليل السمع وحده .

٣ـ ما خرج عن الأمرين السابقين يقبل فيه الأدلة السمعية والعقلية معا [٣] .

---

(١) محصل : ٣١ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل : ١ / ٤

(٣) انظر : أبو الحسين البصري : المعتمد في اصول الفقه : ٢ / ٨٨٦ - ٨٨٧ .

٢ـ النص والعقل في الفكر الكلامي الحديث :

٢.أ. مفهوم علم الكلام الحديث :

لقد كانت البيئة الكلامية في العالم العربي في مطلع هذه الفترة جامدة رتيبة ، يغلب عليها التقليد والجمود ، والاكتفاء بإعادة عرض الماضي ، فكان جل إنتاجها شرحا أو تلخيصا ، وغلب عليه أسلوب الحواشي والتقارير الملحقة بالمتون القديمة [١] وخاصة الأشعرية منها ، تلك التي استقرت في مصر وشمال أفريقيا والعالم العربي ابتداء من انتصار السلاجقة في بغداد على البويهيين الشيعة ، والدور الذي قام به صلاح الدين الأيوبي في مصر لنشر الفكر الأشعري فيها . وبفضل محافظة علماء الأزهر وجهود ابن تومرت في بلاد المغرب .

وإن العالم الإسلامي ـ نتيجة لعوامل متعددة ـ قد أصابه الوهن والخمول والتقوقع في الوقت الذي كانت الحضارة الأوربية فيه تتقدم تقدما مذهلا هذا الوهن والخمول والعيش على هامش التاريخ والحضارة مكن العالم الغربي من إحكام سيطرته السياسية على معظم بلدان العالم الإسلامي ، ولم يكتف الغرب ببسط سطوته السياسية والاقتصادية فحسب ، بل عمد كذلك إلى بسط سطوته الثقافية والحضارية ، فتسربت إلى العالم الإسلامي الأفكار والنظم التربوية والدينية والفلسفية . وقد نالت هذه الأفكار قبولا لدى أولئك الذين يتطلعون إلى الغرب بإعجاب شديد باعتباره نموذجا يجب على المسلمين أن يحتذوه ، إذا أرادوا التقدم والرقى على نحو حقيقي . كما أن بعض هذه الأفكار قد قبلها البعض الآخر على اعتبار أنها لا تتعارض مع الأصول الإسلامية ، وإن كان هذا الاتجاه الأخير

---

(١) انظر : د. إبراهيم مدكور : " تاريخ الفكر الفلسفي في مائة عام " : ٣٦٤ .

قد رفض بعض أدبيات الحضارة الأوربية الوافدة ، لتعارضها في نظره مع أصول العقيدة الإسلامية [١] .

وإن الفكر الكلامي في مصر في العصر الحديث هو ، عبارة عن مجموعة من الأفكار والنظريات الإصلاحية التي نادى بها رواد الإصلاح الإسلامي العاملون على نهضة العالم العربي في العصر الحديث ، وهو لا يقتصر على ما قدمه متكلمون مسلمون ، بل يمتد كذلك إلى ما قدمه مفكرون آخرون استفادوا بقوة من الأفكار الغربية وحاولوا نشرها في العالم الإسلامي [٢] ، بحيث أضحى هذا الفكر الكلامي ـ في جانب من جوانبه المتعددة ـ يعكس حقيقة موقف المتكلمين المعاصرين من أمرين : الأول من الحضارة الغربية الوافدة ، والآخر موقف هؤلاء المفكرين من دور الدين في الحياة المعاصرة .

هذا الفكر الكلامي يرتكز على أسس تراثية ـ أشعرية تارة واعتزالية وتيمية ورشدية أخرى ـ لدى الاتجاه التجديدي : جمال الدين الأفغاني ،ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، ومصطفى صبري ، وحسن البنا ، وسيد قطب وغيرهم . وهو لا يرفض في الوقت ذاته الفكر الوافد تماما ، وإنما يقبل من هذه الأفكار ما يتوافق مع أحكام الشريعة الإسلامية ،ويرفض منها ما يتعارض معها . كما أنه يرتكز في اتجاهه الليبرالي الإنساني على أسس فكرية غربية بدأت في مصر على يد المسيحيين الشوام ـ أمثال شبلى شميل وفرح أنطون ،وفارس نمر ـ ونادى بها الليبراليون المسلمون فيما بعد ـ أمثال على عبد الرازق ، وطه حسين ،

---

(1) See , Hishan Sharabi , Arab Intellectuals and the west , PP. 10-11 .
(2) See , Seyyed Hossein Nasr , Islam in the Islamic World today , PP . 6 -7 , M. A . Zaki Badwi The Reformers of Egypt PP. 11 -17

وأحمد لطفي السيد وإسماعيل مظهر ، ومحمود عزمي ، وحسين فوزي ، وحسن حنفي — ونجد لدى هؤلاء جميعا إلى حد كبير — صورة التطورات التي مر بـها موقف أوربا من الدين ، وكذلك نجد صورة تكون طبـق الأصـل مـن تطـور اللاهوت المسيحي وتحوله من الله إلى الإنسان .

ويمكن القول — على جهة الإجمال — إن الفكر الكلامي المعاصر هو عملية نقدية مستمرة لنظام من التـفكير القديم ، فهو ينتقل من رفض إلى رفض ، ومن تصحيح إلى تصحيح ؛ إذ يقوم على نـقد القديم وتجاوزه إلى الجديد الذي يتوافق مع مشكلات الواقع التاريخي الـمُـعاش ، بل يمكن القول بأن مهمة علـم الكلام المعاصر هـو هذا النقد البناء ، ومحاولة الانتقـال من هذا التفكير القديم الجديد ، معتمدا على نقد القديم وبناء الجديد على ركامه أو على الصالح للبقاء منه إذ هي لا تغـفل أو تهمل العناصر الجـيدة في البناء القديم، وهـذه هي زاوية الإبـداع المعاصر ، وإذا حاولنا أن نفهم الفكر الكلامي المعاصر باعتباره فكرا مبنيا على نقد الكـلام القديم أو معنيا بإعادة تـفسيره مرة أخرى في ضوء جديد ، فالـفكر الحديث يفهم في ذاته باعتباره الـغاية النهائية أو المحصلة المنطقية في مواجـهة التفكير الكلامي القديم الذي يقف الفكر الكلامي الحديث في مواجهته [١] .

---

(1) See Mushen Mohdi , Islamic Philosophy : in "God and man in the contemporary Islamic thought P.110 "

٢.ب. أولية العقل.

لقد عولت النهضة الحديثة التي شهدها علم الكلام في مصر على العقل تعويلا كبيرا ، باعتباره الأداة الأساسية لتحقيق ذلك التوافق المنشود بين النص الديني الثابت (الكتاب والسنة) ومتطلبات الواقع المعاش المتغير ، حتى لا تحدث هوة واسعة بين واقع المسلمين المعاش وبين النصوص الدينية المقدسة التي تصوغ هذا الواقع وتحكمه طبقا للقوانين الإلهية ونجد هذا التعويل على العقل وأهميته لدى كافة الاتجاهات الكلامية المعاصرة سواء تلك التي تقرر أولية العقل على النص ، أو أولية النص على العقل ، أو تدعو إلى تجاوز النص تماما إلى منهج عقلاني ينظر إلى الوحي من زواية تاريخية ، أو تدعو إلى تجاوز العقل والتفسير الحرفي للنصوص الدينية .

لقد بدأ علم الكلام المعاصر في مصر " برسالة التوحيد " للإمام محمد عبده رائد الاتجاه التجديدي ــ التي قدمت لنا مجالا خصبا فيما يتعلق بمسالة أولية الدليل العقلي وعلاقته بالوحي في العصر الحديث [1] بل إن الدليل العقلي قد احتل المكانة الأساسية والأولى لدى أرباب اتجاه التجديد الديني ،وعلى اعتبار أن الأفكار العقلانية هي الوسيلة الأساسية لتحقيق النهضة المنشودة .

لقد أعطى الإمام محمد عبده للعقل أهمية كبرى في كتاباته ،إذ إن الإسلام دين العقل :

" لقد تآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل ، وتقرر بين المسلمين كافة ــ إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه ــ أن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله ، وبقدرته على إرسال الرسل ،وعلمه بما يوحي إليهم ،وإرادته

---

(1) See . B. Micheal et la Cheikh Musstapha Abdel Raziq (Resalat Al - Tawhid . P. XLVIII

لاختصاصهم برسالته ،وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها " [١] . فالعقل حكم في صحة النبوات والإلهيات ـ كما قرر المعتزلة من قبل ـ : " ولابد في تحقق الإيمان من اليقين ،ولا يقين إلا ببرهان قطعي لا يقبل الشك أو الارتياب ، ولابد أن يكون البرهان على الألوهية والنبوة عقليا " [٢] .

إن الأخذ بالدليل العقلي هو منهج القرآن : " فأول أساس ... هو النظر العقلي والنظر ... هو وسيلة الإيمان الصحيح " [٣] ،" وإهمال العقل في العقائد على خلاف ما يدعو إليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة " . بل إن محمد عبده يتجه إلى وصف الكافر الحقيقي بأنه ذلك الذي يرفض دليل العقل ، فالكافر : " هو المعاند الجاحد الذي إذا رأى ضياء الحق أغمض عينيه ،وإذا سمع الحرف من كلمته سد أذنيه ، ذلك الذي لا يبحث في دليل بعد عرضه عليه ولا يذعن لحجة إذا اخترقت فؤاده بل يدفع جميع ذلك حبا فيما وعد نفسه فيه مع الكثير ممن حوله واستند في التمسك به إلى تقليد من سلفه " [٤] .

إن المجتمع الإسلامي الذي أراده محمد عبده هو مجتمع يسوده العقل ، ذلك أن المسلم الحق في رأيه هو الذي يعتمد على العقل في شئون الدنيا والدين ،والكافر إنما يغمض عينيه فلا يرى ضوء الحقيقة ،ولا يقبل اعتماد البراهين العقلية ، والإسلام بخلاف ما زعم أعداؤه ، لم يدع إلى إهمال العقل ، بل حث على العلوم العقلية وغيرها من العلوم الأخرى ، ومن ثم فالمجتمع المثالي هو ذلك

---

(١) " رسالة التوحيد " في " الأعمال الكاملة " : ٣ / ٣٥٦ – ٣٥٧ .

(٢) محمد عبده : تفسير المنار : ١ / ٢٢٩ .

(٣) محمد عبده : الرد على فرح أنطون ، الاضطهاد في النصرانية والإسلام " الأعمال الكاملة " : ٣ / ٢٨٢ .

(٤) تفسير جزء عمّ : ص ١٦٩ .

المجتمع الذي يقبل أوامر الله ويمتثل لها ، ويفسرها تفسيرا عقليا وفقا للصالح العام .

إن التفكير العقلي لدى محمد عبده واجب على الموجود العاقل لا مخلص لـــه منه ، فعلى هذا الموجود العاقل أن ينهض بجهوده الخاصة للبحث عن الحقيقة في العالم الذي يكتنفه . والفحص عن الكائنات والموجودات على قدر ما تتيحه وسائله الخاصة ، وسواء كان مؤيدا أم معارضا ، فعليه أن يدعم موقفه ببراهين يقينيـــة ، ولكن إذا كان عليه ألا يهمل واجب التفكير ، فعليه أيضا أن يحتاط من الشطط في الاستدلال . إن الإمام بنزعته العقلانية كان يميل ــ كما يقر عثمان أمين ــ إلـــى المذهب العقلي الديكارتي واتجاهه الصريح في توخى الأفكار الواضحة المتمـــيزة التي ليس فيها غموض ولا إبهام ، وقد أثبت الفكر المصري أن هذا الميل عنده لم يكن مجرد وهم أو كلام لا اثر له ، فسواء في تعاليمه العامـــة أو فـــي رســـائله الخاصة ، وسواء في دروسه في المنطق أو دروسه في تفسير القـــرآن ، وفـــى اصطناعه منهج الشك واستعانته بروح النقد ، وأخيرا في احترامه للعلم الممحص المضبوط ، استطاع أن يشارك في إمداد المذهب العقلي بحافز جديد لم يكن يتيسر لهذا المذهب في مصر بدون جهوده الموفقة . وهنـــا يكمـــن جوهـــر رسالتـــه الإيجابـــية في أنه نادى باستخدام العقـــل لـــتخليص الديـــن مـــن الأدران التـــي علقـــت به و شوهته [١] .

وبناء على هذا الموقف من أولية الدليل العقلي انقسمت المسائل الكلاميـــة في كتابات محمد عبده إلى ثلاث مسائل : **الأولى** الإلهيات والنبوات ، وفيها يؤخذ بالدليل العقلي فحسب . **والثانية** أمور السمعيات كأحوال الآخرة وهيئات العبادة .

---

(١) انظر : أنور عبد الملك : نهضة مصر : ٤٢٩ ،

والثالثة ما خرج عن هذين الأمرين السابقين ، ويؤخذ فيه بالدليل العقلي والدليل السمعي معا .

ويبدو أن هذا الموقف من أولية الدليل العقلي لدى محمد عبده كان محكوما بتأثره بالتطورات الوضعية الحديثة في الفكر الأوربي ، وبصفة خاصة قانون المراحل الثلاث لدى كومت ، فالطور الثالث ــ من مراحل تطور البشرية لدى محمد عبده ــ هو طور العقل والتدبر ، ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر . بل إن عبده يتجه إلى تأويل قصة آدم وهبوطه من الجنة من خلال قانون الحالات الثلاث [١] .

لقد فتحت آراء عبده حول الدليل العقلي وأوليته في فهم العقائد الدينية الباب واسعا للنقاش حول أولية الوحي أو أولية النقل ، فهناك من يقبل آراء أولية العقل ، وهناك من يرفضها ، وقد تطور هذا الاتجاه ــ اتجاه أولية العقل إلى مدى دفاعية إلى إحلال العقل محل النص ، على اعتبار أن العقل قادر على الوصول إلى حقائق النص ،كما سوف نرى .

ويأخذ الدليل العقلي في العقائد مكانة مهمة لدى تلميذ الإمام رشيد رضا ــ تلميذ الإمام ــ : " فالعقل مشرق أنوار الدين ، والإيمان هو تصديق العقل بأن جميع ما جاء به النبي فهو حق . فالدين الإسلامي والعقل توأمان ... القرآن لا يخاطب إلا العقل ، لا سيما في قضايا الإيمان ومسائل الاعتقاد التي يطلب فيها العلم ويرفض الظن وإن كان راجحا " . و" قواعد الدين الإسلامي وضعت أساس العقل فلا

---

[١] انظر : تفسير القرآن : ٢٨١/١ - ٢٨٤

يخرج منها عن المعقول [١] ". بل إن ختم النبوة في الإسلام يعنى ـ لدى رشيد رضا ـ بناء هذا الدين على أساس العقل [٢] . وهو يربط كما ربط أستاذه ـ من قبل ـ بين الدين والتطور العقلي للبشرية ، إذ بلغت البشرية أَوْجَ اكتمالها العقلي بالإسلام الذي استقل به العقل الإنساني .

وبناء هذا الموقف من الدليل العقلي ، فان رشيد رضا يرى أن مسألة الألوهية والنبوة لا تثبت إلا بالدليل العقلي . أما الأمور السمعية فإنه لا يؤخذ فيها إلا بالدليل النقلي .

ولدى الشيخ مصطفى المراغي ـ الذي كان تلميذا للإمام وشيخا للأزهر ـ يأخذ العقل مكانة ملحوظة في أصول الدين " فعلى أساس العقل يجب أن يفهم الكتاب وتفهم السنة ، وتفسر الآيات ،وينظر إلى مصالح البشر ، ومن أهدر العقل فقد أضاع الأساس وباء بالخسران[٣] . والأمر مثل ذلك لدى عبد العزيز جاويش ، ومحمود شلتوت .

بل إن الاهتمام بالعقل نجده لدى أولئك الذين عارضوا آراء الأستاذ الإمام مما يدل على أن الطابع العقلي هو الأساس الذي اتسمت به النهضة الكلامية في مصر . فهاهو ذا مصطفى صبري الذي اشتد في النكير على الأستاذ الإمام يصرح بان للمسلم " قوتين " :

" قوة في دينه وقوة في عقله " ومراده من أن الإسلام دين العقل هو أنه دين يتفق مع العقل ولا يناقضه ، وليس مراده أن الإسلام دين اخترعه العقل حتى يناقض ذلك كل دين وعقل وهو يفرق تفرقة واضحة بين العقل المحض والعقل التابع للحس ، فالعقل ما يكون حكمه قطعيا ويكون ما ينفيه مستحيل الوجود ومالا ينفيه ممكن الوجود ، أما العقل التابع للحس فلا يلزم منه أن يتخطى العقل إلى ما

---

(١) رشيد رضا : المنار : ٢ / ٢٩ / ٤٥٧ .

(٢) رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم : ١ / ٢٥٢ .

(٣) مجلة الأزهر ، م (١، ج ٤ ، ١٩٧ ، عدد ١٩٤٠ م) .

وراء المحسوسات حتى لا يبقى فرق بين العقل والحس ، وبالتالي فلا يلزم من كون الشيء غير محسوس أن يكون غير معقول ، وهذا هو الخطأ الأساسي الذي وقع فيه عبده لدى مصطفى صبري ، والذي دفع بعبده إلى أن يسلك طريق التأويل .

ويختلف الأمر إلى حد بعيد لدى عبد الحليم محمود ــ أحد أعلام الفكر الصوفي في مصر الذي يرى أن العقل قد عجز تماما عن دور مثمر في مجال العقائد ومجال الأخلاق[١] ، وربما ينبع ذلك لديه من أن الدين جاء ليقود الإنسانية نحو الكمال الروحي ، والمعنى الروحي ووسيلته لا سبيل إلى تحديدها من الإنسان نفسه وإنما تحديدها موكول إلى الله ، ذلك أن السمو الروحي قرب من الله ، والقرب من الله يرضي الله نفسه ، وكل من حاول أن يتخذ طريقا آخر فإنما يجرى وراء سراب . إن القول بأن الإسلام يحتكم إلى العقل ، أي يحكم العقل في المسائل والمبادئ والقواعد ، ينتهي من ذلك بأن يكون العقل هو القائد وليس الدين ، وذلك قلب للأوضاع وانحراف عن الصراط المستقيم .

إن موقف الدين من الدليل العقلي يتحدد لديه على النحو التالي :

أ ــ جاء الدين هاديا للعقل في مسائل معينة هي أولا : ما وراء الطبيعة ، أي العقائد الخاصة بالله ورسله وباليوم الآخر والغيب الإلهي على وجه العموم . وثانيا : في مسائل الأخلاق ، أي الخير والفضيلة وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني ليكون الشخص صالحا . وثالثا في مسائل التشريع الذي ينتظم به المجتمع وتسعد به الإنسانية . وقد جاء الدين هاديا للعقل في هذه المسائل بالذات ، لأن العقل إذا بحث فيها مستقلا بنفسه ، فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق

---

(١) انظر : عبد الحليم محمود : التوحيد الخالص : ٨ .

عليها الجميع ، وبذا يرفض ما انتهى إليه عبده ورضا والمراغي من قبل من أن قضايا التوحيد والنبوة لا يقبل فيها إلا الدليل العقلي .

ب ــ وجاء القرآن يفهمه العقل في المحكم فيه ، ولا يناقض العقل في المتشابه ، ذلك أن القرآن : " منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب [١] " .

وقد أراد الإسلام من المسلم أن يستمسك استمساكا تاما بالمحكمات ، وأن يسلم الأمر لله في المتشابه [٢] . وهو أمر يختلف فيه عن محمد عبده وأتباعه الذين أجازوا تأويل المتشابه ، أما فيما يتعلق بالمحكم فليس ثمة خلاف بينهما .

جـ – جاء القرآن لا يستشير الإنسان في شيء ، وتعالى الخالق عن أن يستشير المخلوق وتعالى الرب عن أن يستشير المربوب ، وتعالى العليم الحكيم عن أن يحتكم إلى البشر أو يحكمهم فيما أنزله إليهم هداية وتربية .

ولا يعنى هذا أنه ينكر دور العقل في فهم الدين ، ولكنه يجعل لهذا العقل حدودا في إدراك مسائل الدين ، تلك الحدود التي تتلاءم مع محدودية العقل الإنساني وقصوره في فهم مسائل ما بعد الطبيعة . والقرآن لديه : " دين العقل بهذه المعاني ، فهو هاد للعقل ومرشد له وقائد ، وهو مبادئ يفهمها العقل في سهولة ويسر ، وهو لا يناقض العقل ،وعلى العقل أن يلجأ إليه في كل ما أتى به "

إن العقل لابد من أن يخضع للوحي ويسجد له ، ويتنافى السجود لله مع محاولة تحكيم العقل في أوامره سبحانه وتعالى أو نواهيه ، وكل محاولة من هذا

---

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) انظر: د . عبد الحليم محمود : التوحيد الخالص : ١٨ .

(٣) االسابق ص . ٢

القبيل إنما هي كبرياء وهى إبليسية ، وإذا كان لإبليس خلفاء من بنى آدم ، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا بدور إبليس في المجتمع الإنساني . إنهم هؤلاء الذين يرفضون الوحي الإلهي جملة ، أو يحاولون أن يزنوا الوحي بميزان العقل فيرفضون ويقبلون ويؤولون ما شاء لهم الهوى . وفى الجملة فإن المدرسة العقلية في الدين لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان إنما سجدت للعقل وعبدت العقل .

ولا يعنى هذا إنكار دور العقل فالتفكير منهج إسلامي ، ولكنه التفكير العقلي المضبوط بضابط الوحي السماوي . فالعقلانية ـ وإن اختلفت مستوياتها وحدودها لدى المتكلمين المعاصرين ـ هي الطابع الأساسي والمميز لعلم الكلام في مصر في القرن العشرين، فليس يعنى اتساع مساحة العقلانية لدى عبده ومدرسته التقليل من شأن النقل ، وكذلك ليس يعنى اتساع مساحة النقل لدى معارضي محمد عبده التقليل من دور العقل في فهم قضايا الدين ، بقدر ما يعنى وضع ضوابط للعقل الإنساني وتحديد مجالاته في التعامل مع النص الديني .

بل إن الاهتمام بالنظر العقلي ودوره في معرفة أصول الدين يمتد ليصل إلى مؤسسي الحركات الإحيائية الإسلامية ـ ذات المنزع العملي ـ التي يغلب عليها الطابع السياسي للدين على غيره من الجوانب الأخرى ، فالإسلام ـ لدى الإمام حسن البنا ـ " يحرر العقل ويحث على النظر في الكون [١] " هذا الدور الذي يقوم به العقل في معرفة قضايا الدين ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوحي السماوي :" إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقى ذلك أوحى وإدراك مدلولاته ، وهذه وظيفته ثم هذه هي فرصته في النور والهداية "[٢] .

---

(١) " رسالة التعليم " في " مجموعة رسائل الإمام " : ٢٧٠ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٧ - ١٠٩٨ .

فالتفكير مطلوب والحض عليه منهج قراني ، ولكنه التفكير المضبوط بضوابط الوحي[١] .

إن الاهتمام بالعقل لدى اتجاهي التجديد الديني والأصولية الإسلامية اخذ مستويات متعددة لا تنكر في مجملها العاء دور العقل في فهم قضايا أصول الدين ولقد اتسعت مساحة العقلانية لدى الإمام محمد عبده ومدرسته وبصفة خاصة لدى رشيد رضا ، والمراغي ، وشلتوت على حين أن المساحة بدأت تضيق إلى حد ما لدى مصطفى صبرى الذى فرّق على نحو واضح بين العقل المرتبط بالحس والعقل المحض ، على حين أن مساحة الخُلْف تزداد اتساعا بين عبده وعبد الحليم محمود الذى يقلل كثيرا من دور العقل فى فهم أصول الدين ــ وربما كان للاتجاه الصوفى الذي اعتنقه أثر كبير فى هذا الموقف من العقل ــ كرد فعل لمغالاة عبده وتجاوزه بالعقل حده فى معرفة قضايا الدين ، ثم تعود الأمور مرة أخرى إلى الاتزان لدى حسن البنا وسيد قطب ، وذلك فى عدم المغالاة فى دور العقل أو بخس قيمته فى التفكير فى قضايا الدين ، وربما لعبت الخلفية الثقافية لكل من هؤلاء الرواد دورا مهما في تحديد الدائرة التي يشغلها العقل في فهم قضايا الدين

ويختلف الأمر إلى حد كبير لدى الليبراليين الإنسانيين فى مصر ، الذين ذهبوا إلى ضرورة تحويل علم الكلام من دراسة الإلهيات إلى دراسة الإنسانيات ،وبناء علم كلام جديد يعتبر الإنسان لا الله ــ تعالى ــ محوره . ويخلص من ذلك إلى أن علم أصول الدين :

" يكشف ببنائه عن علم الإنسان ، ووجود الإنسان ، وذات الإنسان ، وفعل الإنسان ، وعقل الإنسان وماضى الإنسان ، ومستقبل الإنسان ،وعمل الإنسان

---

١ - سيد قطب في ظلال القرآن ٢/٩٩

ومجتمع الإنسان ، وتاريخ الإنسان "[١] . إذ يأخذ العقل مكانة أساسية ومهمة فـــى بناء " الكلام " الجديد إلى الحد الذى ينتهى معه أو يتضاءل إلى حـــد كبـير دور النقل على اعتبار أن العقل ــ وخاصة فى مرحلته الأخيرة ــ يستطيع وحـــده أن يصل إلى اليقين بعد انتهاء دور الوحى فى دفع العقل إلى الإمام ، "فمنهج العقـــل هو العامل الفكرى الذى تبنى عليه الحضارة ، والعقل هو منشئ الحضارة ،وتقاس درجة تقدم كل حضارة بدرجة عقلانيتها ، وهـــو القـــادر علـــى اســـتيعاب كـــل الصدمات الحضارية واحتواء كل النظريات الغازية وإعادة بنائها داخل النظرية العقلية العامة . ولمنهج العقل قدرة فائقة على الامتصاص الحضـــارى للثقافـــات الواردة ... ويؤدى منهج العقل فى النهاية إلى الانفتاح على الآخرين بما لديه من قدرة على الحوار فيحمى من الوقوع فى التعصب ، فالدليل هو الطريق لإثبـــات الحقيقة ، والبرهان هو المحك فى اختلاف الناظرين[٢] ".

والعقل ــ هنا ــ يشمل الحس والعقل والخبر ، وهو بديل عن النبى وهو الوريث الشرعى للوحى ، ولما اكتمل الوحى فإن العقل هو التطور الطبيعى له ، ومنهج العقل هو الاستمرار الطبيعى للنبوة والتطور الطبيعى لها . وإن العقل هنا يمكنه الاستغناء تماما عن النقل بل لابد أن يستغنى ، لأن النقـــل تدمـــير لعقـــل الإنسان وقدراته ، فالعقل البديهى لا يتوقف فى أمور الدنيا والدين .

وبالجملة فإن : " القضاء على إدارك العقل هو قضاء على الحكمة مـــن الشريعة ، وقضاء على التعليل وهو أساس الشرع فى الجمع بين المختلفات . إن هدم العقل هدم للشريعة ، فالشريعة تقوم على العقل [٣] " .

---

(١) د. حسن حنفي . دراسات إسلامية : ٣٠٣

(٢) د. حسن حنفي من العقيدة إلى الثورة ١/ ٤٠٤

(٣) انظر د. حسن حنفي من العقيدة إلى الثورة ٣ / ٤٣٥

والحق أن ارتباط العقل بالنقل لا يمكن أن يكون غريبا عن الإسلام فالقرآن الكريم فى رجوعه إلى العقل السليم والوجدان السليم ، يرجع إليهما فى أطوار ثلاثة قبل ورود الشرع وفى أثناء نزول الشرع ،وبعد انتهائه وتمامه أما قبل الشرع فإن القرآن يقرر أن النفوس قد منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخير والشر ، والعدل والظلم . قال ــ تعالى ــ : " ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها [1] " . وعند نزول الشريعة الإسلامية ،فإن خطابها لا يعنى بالضرورة إلغاء حكم العقل لأن هذا الخطاب الشرعى لا يفهم إلا بالعقل . وكذا بعد انتهاء نزول الشرع ، فالعقل إما أن يؤكد الشرع ويؤيده ، وإما أن يغذيه ويرفده ،وإما أن يكمله ويزيده .

والحضارة لا تنبعث إلا بدافع ديني ، ولا تظهر فى أمة من الأمم إلا فى صورة وحى يهبط من السماء يكون للناس شريعة ومنهاجا ، أو هى على الأقل تقوم فى أصلها على توجيه الناس نحو معبود غيبى ، فكأنما قدر الله لإنسان ألا تشرق عليه الحضارة إلا حين يمتد بصره إلى ما وراء حياته الأرضية . فوراء كل حضارة من الحضارات الموجودة اليوم ديانة عالمية ، وإن العقائد الدينية هى التى تسير مجرى التاريخ .

وإن العقل قادر على أن يصل إلى نفس الحقائق التى قدمها الوحى الذى انتهى دوره فى التاريخ بظهور الوعى الإنساني مكتملا ومستقلا عقلا وإرادة ومن هنا فإن قضايا التوحيد والنبوة والسمعيات هى قضايا لابد أن يستخدم فيها الدليل العقلى أولا ثم يأتى النقل بعد ذلك ، بل إن السمعيات ــ وهى لا تثبت إلا بدليل نقلى ــ لا يمكن تأييدها بالحس والمشاهدة أو التجربة والعقل والاستدلال ؛ ولذلك تظل ظنية ولا ترتقى إلى مرتبة اليقين ، وان كان يمكن تأويلها على اعتبار

---

(١) سورة الشمس : ٨

أنها تعبير عن عالم التمنى عندما يعجز الإنسان عن عيشه بالعقل فى عالم يحكمه القانون ويسوده العدل ، لذلك تظهر باستمرار فى فترات الاضطهاد وفى لحظات العجز. وحين يسود الظلم ويعم القهر كتعويض عن عالم مثالى يأخذ فيه الإنسان حقه ويرفع الظلم عنه. وأمور المعاد تصوير فنى يقوم به الخيال تعويضا عن حرمان فى الخبز أو الحرية أو القوت أو الكرامة فى عالم يحكمه القانون ويتحقق فيه العدل[١] .

إن الاهتمام بالعقل فى علم الكلام المعاصر فى مصر يكاد يكون طابعا أساسيا فى نتاج المتكلمين المحدثين ،وإن كانت دائرة هذا الاهتمام تختلف من متكلم إلى آخر فهى تارة تتسع ــ كما هو الحال لدى عبده ورضا والمراغى وشلتوت ــ وتارة تضيق إلى حد ما لدى مصطفى صبرى ثم تضيق أكثر لدى عبد الحليم محمود وحسن البنا وسيد قطب ، وأخرى ترتفع إلى حد لا يبقى معه للدليل النقلى دور في إثبات المسائل الكلامية جميعا ، وإذا كانت مسائل العدل والتوحيد يؤخذ فيها بالدليل العقلى ، ومسائل السمعيات يؤخذ فيها بالدليل النقلى ،وما عدا ذلك يؤخذ فيه بالدليل السمعى والعقلى معا لدى عبده ومدرسته ، فإن المسائل الكلامية جميعا لا يؤخذ فيها إلا بالدليل العقلى لدى حسن حنفى . لقد تطور الاتجاه الاعتزالى الذي تبناه عبده فيما يتعلق بالدليل العقلى ودوره فى البحوث الكلامية إلى الحد الذى خرجت فيه ــ بتأثير تطورات علم اللاهوت المسيحى فى الغرب ــ كل مسائل علم الكلام عن الدليل النقلى ،وأصبح الدليل العقلى هو الحاكم الأساسى فى كل قضايا علم أصول الدين .

---

(١) أنظر : د . حسن حنفي : من العقيدة إلى الثورة : ٤/ ٦٠٠ ، دراسات إسلامية : ٢٨-٢٩ ، الدين والثورة في مصر : ٧ / ٢٨ - ٢٩ .

٢ ب. الدليل النقلي :

يأخذ الاهتمام بالدليل النقلى فى نتاج المتكلمين المعـــاصرين مســتويات متعددة تضيق تارة وتتسع تارة أخرى ، وثالثة تكون متوازنة مع الدليل العقلـــى ، بحسب الموقف الذى يحكم هذا المتكلم أو ذاك ، وهو ما ســـوف نوضحـــه فـــى الصفحات التالية .

وإن عقلانية رائد الفكر الإسلامي الحديث محمد عبده لا تعطـــى للدليـــل العقلى كل الأهمية فى بحث قضايا أصول الدين ، بل إن الوحى (النقل) يأخذ ـــ كذلك ـ مكانة مهمة فى أدبيات عبده الكلامية[١] ، فالعقل البشرى وحده ليس فـــى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة ، فليس فى سعة العقـــل الانسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما ينبغى أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ،ولا أن يقرر لكل نوع من الإعمال جـــزاءه فـــى تلك الدار الآخرة " ، وبالجملة فإن " العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيـــه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى[٢] " ، بل إن اليقين لا يمكـــن الوصـــول إليـــه إلاّ بوسيلتين : إحداهما المقدمات العقلية البرهانيـــة ، والأخـــرى الأدلـــة الســـمعية المتواترة . أما أحاديث الآحاد فلا يؤخذ بها فيما يتعلق بالعقائد .

ولكن الإيمان لدى محمد عبده الذى كان همه أن يوضح أن الوحى يجب أن يتفق مع العقل ، لابد أن يعتمد اليقين الذى لا يتأتى إلا عن طريق العقـــل : " فقواعد الدين الإسلامي وضعت على أساس العقل فلا يخرج شـــيء منـــها عـــن

---

(1) See , M. A . Zaki Badwi , OP . cit . , P . 20 , Louis Gardet Interducation Ala Theologie Muslmane , PP . 85-86

(٢) محمد عبده : " رسالة التوحيد في الأعمال الكاملة " : ٣٦٩/٣ ، وقارن السابق ٣٦٩/٣- ٣٩٧ .

المعقول " ، وهو ما سوف يفضى إلى فكرة الدور التى سوف نتحدث عنها فيما بعد والتي تدور فى مجملها على أن العقل أساس السمع .

ولقد تبنى هذا الموقف من بعده تلميذه رشيد رضا ، وعبد العزيز جاويش ومحمود شلتوت .

ويأخذ الدليل النقلى مكانة مهمة فى الأدبيات الكلامية لمصطفى صبرى ، فالإسلام دين العقل ، أى إنه يتفق مع العقل ولا يناقضه ، وأما حصر ما يبنى عليه العقل فى المحسوسات وحصر نواميسه فى نواميسها ، فالعقل لا يقبل هذا الحصر وذاك التضييق ، وليس للعقل أوسع من دائرة الحس . ولم يستطع عبده وأتباعه أن يميزوا بين العقل المحض والعقل الخالص ، فعاملوا المانع الطبيعى معاملة المانع العقلى الذى أفضى بهم إلى فكرة الدور التى ترتب عليها تأويل الكثير من النصوص القرآنية .

أما الشيخ عبد الحليم محمود فإنه يقر أن النقل (الوحى) هاد للعقل ،وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحى الإلهي[١] . وبالتالى فإن فكرة الدور التى تجعل العقل أصل السمع على اعتبار أن أدلة السمع ظنية الدلالة ليس لنا أن نجدها لديه ، ونجد نفس الموقف لدى حسن البنا [٢] ،وسيد قطب [٣] ، وعمر التلمسانى [٤] .

ويختلف الأمر إلى حد بعيد فى موقف حسن حنفى من الدليل النقلى ، إذ هو لا يمكن تصوره لأنه لا يعتمد إلا على صدق الخبر سندا أو متنا ، وكلاهما لا يثبتان إلا بالحس والعقل طبقا لشروط التواتر ،ولا يمكن إثبات صحة الخبر بالمعجزة وحدها ولا يمكن تصديقه فقط بإثبات الصحة التاريخية عن طريق النقد الخارجى

---

(١) انظر: التوحيد الخالص : ٢١ .

(٢) انظر :" رسالة التعاليم " في " مجموعة رسائل الشهيد " : ٢٧١ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن : ٢/ ١٠٩٧ – ١٠٩٨ .

(٤) انظر : بعض ما علمني الإخوان المسلمون : ٥٩ .

دون الاهتمام بالنقد الداخلى أى بفهمه وتفسيره وإيجاد تطابقه مع الحس والعقل[١]. ولا يوجد شيء فى النص إلا ما اعتمد على العقل أولا . ولا يعطى النقل إلا افتراضات يمكن التحقق من صدقها ومن صحتها فى الواقع ،كما يعطى حدوسا يمكن البرهنة على صدقها بالعقل وعلى صحتها فى التجارب اليومية .

وفى الجملة ، فانه إذا كان النص فارغا إلا من الوقائع الأولى التى سببت نزوله ، فإنه كثيرا ما تتدخل الأهواء والمصالح الشخصية والظنون والمعتقدات لتملأ النص وليست مقاصد الوحى ذاتها ، ومن ثم يتحول النص إلى مجرد قناع خفى وراء الأهواء والمصالح ،ويستطيع صاحب كل مذهب أن يعتمد على نص ، وأن يجد له نصاً فى الكتاب يؤيده ، بل يستطيع أنصار المذاهب المتعارضة أن يجدوا جميعهم نصوصا لتأييدهم . وفى حقيقة الأمر يخضع منهج النص للاختيار الاجتماعى والسياسى للنصوص . هذا الموقف من الدليل النقلى ومدى حجيته فى قضايا أصول الدين ، أفضى إلى ما يسمى فى علم الكلام بفكرة " الدور " التى تقرر أن العقل أصل السمع ، وهذا هو موضوع الفقرات التالية :

أ. فكرة الدور:

إن الدلالة النقلية لا يمكن أن تفيد اليقين ، لأنها مبنية على نقل اللغات ، ونقل النحو والتصريف ، وعدم الاشتراك ،وعدم المجاز ، وعدم الإضمار ، وعدم النقل ، وعدم التقديم و التأخير ، وعدم التخصيص ، وعدم النسخ ،وعدم المعارض العقلى ،وعدم هذه الأشياء مظنون لا معلوم ، والموقوف على المظنون

---

(١) انظر: د. حسن حنفي : من العقيدة إلى الثورة : ١/٣٩٠ .

مظنون ، وإذا ثبت هذا ظهر أن الدلائل النقلية ظنية ،وأن العقلية قطعية ، والظن لا يعارض القطع[١] .

وإن ما قرره الرازى الأشعرى متعلقا بظنية الدليل النقلى يظهر لدينا مرة أخرى فى نتاج بعض المتكلمين المعاصرين وكان من نتائج الحكم بظنية الدليل النقلى ، أن اصبح العقل أساس النقل ، إذ لا يمكن أن يعتقد النقل على نقل مثله فى إثبات العقل ، وإلا كان ظنيا .

أن الدليل النقلى لا يفيد اليقين لدى عبده ــ كما هو الحال لدى المعتزلة ومتأخرى الأشاعرة ــ وبالتالى فلابد من الاستدلال العقلى ، " والتحقيق أن الألفاظ لا تفيد اليقين بمدلولاتها ،بكثرة تطرق الاحتمال ، فلا سبيل إلا إلى الاستدلال ، وتأويل ما يبدي بظاهرة نقصاً إلى ما يفيد الكمال ،" وإذا صح التأويل للبرهان فى شيء صح بقية الأشياء ،حيث لا فرق بين برهان وبرهان ، ولا لفظ ولفظ [٢] " وهو ما نجده لدى عبد العزيز جاويش ــ أحد أتباع الإمام ــ الذى أوضح أن من أصول الإسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض"[٣]

أما حسن حنفى فإنه يوجه العديد من اوجه النقد إلى الدليل النقلى الصرف منها :

١ــ أن الدليل النقلى الخالص لا يمكن تصوره لأنه لا يعتمد إلا على صدق الخبر سندا أو متنا ، وكلاهما لا يثبتان إلا بالحس والعقل طبقا لشروط التواتر ، فالخبر وحده ليس حجة ولا يثبت شيئا ، ولا يمكن إثبات صحة الخبر بالمعجزة وحدها ، ولا يمكن تصديقه بإثبات الصحة التاريخية فقط عن طريق النقد الخارجى دون الاهتمام بالنقد الداخلى ، أي بفهمه وتفسيره وإيجاد تطابقه مع

---

(١) انظر: الرازي : معالم أصول الدين : ٢٤ .

(٢) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة و الكلاميين : ١٩/١ .

(٣) الإسلام دين الفطرة : ٩١ .

الحس والعقل ، ومع التجربة البشرية الفردية والاجتماعية . والحق أن الأدلة النقلية ـ ممثلة فى الكتاب والسنة هى أدلة مشفوعة ببراهينها العقلية ، والخبر فى ذاته يشير إلى دلالة عقلية متضمنة فيه ، وفى نفس الوقت يمتاز الخبر بأنه خبر عن الله أو عن الرسول ، وإذا كانت الدلالة النقلية تناسب من آمن بالرسالة ، فان الدلالة العقلية المتضمنة فى آيات القرآن تناسب من أراد أن يعمل عقله فيما جاء به الرسول .

يقول ابن تيمية : " إن السمعيات مملوءة من إثبات الصانع وقدرته وتصديق رسوله ، ليس فيها ما يناقض هذه الأصول العقلية التى بها يعلم السمع ، بل الذى فى السمع يوافق هذه الأصول ، بل السمع فيه من بيان الأدلة العقلية على إثبات الصانع دلائل ربوبيته وقدرته ، وبيان آيات الرسول دلائل صدقة أضعاف ما يوجد فى كلام النظار.

٢ـ أن الدليل النقلى يقوم على التسليم المسبق بالنص كسلطة إلهية ، لا يمكن مناقشتها أو رفضها أو نقدها ، فهو دليل إيماني صرف يعتمد على سلطة الوحي لا على سلطة العقل ، وبالتالى فلا تلزم دلالته إلا المؤمن به سلفا ، تلزم المسلمين المؤمنين وحدهم دون غيرهم من سائر أهل الملل والنحل الذين لا يؤمنون بسلطة الوحى ، وبالتالى يفقد العلم بهذا الدليل قدرته على الحوار مع الخصوم سواء من الداخل ، أم من الخارج ، وهو الذى أتى للدفاع عن العقيدة ضد منتقديها ، وفى هذه الحالة لا تنفع إلا حجة العقل وحده الذى يشارك فيه الجميع ويسلِّم ببراهينه وحججه [1] . والحق أن المؤمن بالأدلة النقلية لا يؤمن بها إلا بعد أن تثبت لديه بالحجة والبرهان ، كما أن هذه الدلالة النقلية تحمل فى

---

(١) انظر : د. حسن حنفي : من العقيدة إلى الثورة : ٣٩٢/١ – ٣٩٣ .

جنباتها البراهين العقلية على صدقها . فالدلالة النقلية للمؤمن والدلالة العقلية للمؤمن وغيره من الشاكين فى أمر الدين . أما أهل الملل الأخرى فإنهم يؤمنون بالدلالة العقلية المتضمنة فى الدليل النقلى بالاضافة الى المعجزة التى يؤمنون بواستطها بصدق ما أخبر به الرسول . وهذه الدعوى تدل على انهم جاهلون بالنص وبحقيقة العقل معا ، اذ ليس كل ما يدعيه الناس عقلا صريحا فى دلالته ، وليس كل ما يدعيه الناس نصا صريحا سالما فى متنه وفى سنده ، ولكى يكون العقل يقينيا لابد ان يكون صريحا فى دلالته على المطلوب ، ولكى تكون دلالة النص يقينية لابد أن يكون النص صحيحا فى متنه . فإذا توافر هذان الشرطان فى العقل والنقل استحال أن يكون بينهما تعارض أبدا ، ذلك أن غاية النقل والعقل معا واحدة وهى الوصول إلى الحق واليقين والوسائل التى تؤدى إلى غاية واحدة لا تتعارض وانما تتعاضد[١] .

٣ــ يصطدم الدليل النقلى بمشاكل اللغة والتفسير والفهم ، فالنص ليس حجة عقلية بديهية ، بل هو خاضع لقواعد التفسير ، لأصول الفهم ، ولشروط الإدراك . والنص بذاته ليس حجة بل هو مقروء ومفهوم ومحول الى فكرة فى زمان محدد أو مكان معين . ومن ثم فالدلائل النقلية كلها لا تفيد اليقين نظرا لاعتمادها على اللغات . ولما كان الدليل عادة مكتوبا ، فقد ظهرت الرموز والحروف كأحد مكونات الدليل ، كما أن الفهم يرتبط بمعرفة قواعد التفسير سواء فى منطق الألفاظ ،مثل : الحقيقة والمجاز ، والظاهر والمؤول ، والمجمل والمفسر والمحكم والمتشابه ، والمطلق والمقيد ، إلى آخر ما وضعه علماء أصول الفقه . ويساعد على ذلك منطق السياق من فحوى الخطاب وصلة النص بالواقع فى أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، و بالتالى فإن الحجج النقلية كلها

---

(١) انظر : د. محمد السيد الجليند : تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين : ٧٣ - ٧٤ .

ظنية ، حتى لو تضافرت وأجمعت على شيء إنه حق لم يثبت كذلك إلا بالعقل ، ولو بحجة عقلية واحدة . والحق أن ما قيل بشأن مفردات اللغة ومعانيها ، وأنه أحادى غير مسلم على إطلاقه ، ذلك أن اللفظ القرآنى من المتواتر فلا يحق وصف الأدلة السمعية بكونها ظنية ، لأن نقلها أحادى هكذا على وجه الإجمال . أما المجاز ونحوه من ضروب التصرفات اللغوية، فهى وسائل للإبانة عن الغرض والمدلول والقرآن قد احتوى على نوعين من الآيات : المحكمات والمتشابهات . وأوجب رد الثانية إلى الأولى ، فقوله ــ تعالى ــ " والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون " [١] لا يفهم إلا فى ضوء الآية الأخرى " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[٢] " والقرآن لا يفسر بالمدلولات اللغوية وحدها ، بل بالأحاديث الثابتة ، وأفهام السلف من الصحابة والتابعين الذين هم أقدر على فهم المراد مما نقله علماء التفسير وحملة الآثار.

يعطى الدليل النقلي الأولوية للنص على الواقع ، فهو بداية من خارج الواقع ، وكأن النص هو الواقع مع أن النص في بدايته واقعة معروفة فى أسباب النزول ، يغفل الدليل النقلي ليس فقط الواقعة المشابهة ، بل أيضا الواقعة الأولى ، وبالتالي يستخدم النص طائرا في الهواء بلا محل يخلق واقعة من نفسه فيظل فارغا بلا مضمون ، ينغلق النص على ذاته أو يستعمل في غير موضعه طبقا للهوى والمصلحة كواقع بديل . إن النص بطبيعته مجرد صورة عامة تحتاج إلى مضمون يملؤها ، وهذا المضمون قالب فارغ يمكن ملؤه من حاجات العصر ومقتضياته التي هي بناء الحياة الإنسانية التي عبر عنها الوحي في المقاصد

---

(١) الذاريات : ٤٧ .

(٢) الشورى :١١ .

العامة. والحق أن هذه الفكرة تقضى قضاء تاما على الدليل النقلـــى ؛ إذ تجعـــل الدليل النقلى مجرد استجابة لحاجات الواقع ، فـــالواقع علـــة و الوحـــي معلـــول ،وبالتالي فالوحي ــ خلافا لما تعرفه الأديان السماوية ــ هو عبارة عن مجموعة من التجارب التاريخية التي تعبر عن مرحلة معينة من تاريخ الإنســـان ، إنـــه يُعبرعن المشكلات التي حدثت في واقع تاريخي محدد، ثـــم الحلـــول الإنســـانية المقترحة لهذه المشكلات ، فالوحي هو التاريخ ، والتاريخ هو الوحي ، وليس ثمة مصدر إلهي للوحي . والحق أن مشكلات الواقع ليست غير علل مناسبة أو مجرد ظروف لوجود الحكم الشرعي ، فالأحكام الشرعية هي التي تقوم بصياغة الواقع وفق المبادئ الكلية والمقاصد الأساسية التي يهدف إليها الوحي الإلهي فـــي كـــل زمان ومكان . ولا يعنى هذا إنكار أثر الواقع والظروف تماما في تغير الأحكـــام الشرعية بتغير الزمان والمكان أو ما يعبر عنه بأثر الظروف في تغير الأحكـــام الشرعية ، هذا التغير في الأحكام الشرعية يتعلق بالمقـــاصد العامـــة للشريعـــة الإسلامية ، ولا يؤدى إلى إلغائها تماما ، والتخلص منها بحجة عـــدم ملائمتـــها للواقع .

وعلى الرغم من أوجه النقد الموجهة إلى الدليل النقلى ، فإن هذا الدليل لا يخلو من فائدة في بعض الفترات التاريخية المحددة ، فالعكوف على النص يؤدى إلى العثور على إمكانياته اللا محدودة وفهم معانيه المتضمنة فيه ، والتدقيق فـــي هذه المعاني وإخراج الكامن منها .ويؤدى كذلك إلى إيجاد منطق للنص ، منطـــق لغوى يكون وسيلة لإحكام المعاني ، حتى يقال فيه بالظنون ،ومنطق عملي لتوجيه السلوك ، ومنطق عملي لفهم العالم وتغييره .

ويمتاز الدليل النقلى كذلك بأنه يبدأ بداية تجعل عمل العقل قائمـــا علـــى أساس يقيني ، وتحمى نشاط العقل من التشعب والتقلب . إن هذا الموقـــف مـــن الدليل النقلى الذي يكمن في أنه لا يفيد اليقين بل هو ظنـــي ينتـــهي بـــالمتكلمين المعاصرين إلى اعتماد الدليل العقلى أداة لفهم قضايا أصول الدين وتقديم العقـــل على السمع عند التعارض ، وهذا هو موضوعنا التالي .

ب ــ تقديم العقل على السمع عند التعارض :

إذا كانت فكرة الدور ــ العقل أساس الشرع ــ تُقرر أنه لا يجوز الاستناد إلى النقل في إثبات بعض أمهات العقائد ، مثل العدل والتوحيد لدى الإمام محمـــد عبده ومدرسته ، أو في كل أمهات العقائد ، كما هو الحال لدى حسن حنفي فـــإنّ هذه الفكرة تضعف الاعتماد على النقل في كل مسائل العقيدة متى بـــدت ظواهـــر النقل معارضة للعقل . لقد صوّر محمد عبده هذا لفكرة قائلاً الـــذي يرشـــد إليـــه الشرع والعقل أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبـــات صانع واجب الوجود ، ثم منه إلى إثبات النبوات ،ثم يأخذ كل مـــا جـــاءت بـــه النبوات بالتصديق والتسليم ، بدون فحص فيما تكنـــه الألفـــاظ إلا فيمـــا يتعلـــق بالأعمال على قدر الطاقة ، ثم يأخذ طريق التحقيق في تأســـيس جميـــع عقـــائده بالبراهين الصحيحة كان ما أدت إليه ما كان ، لكن بغاية التحري والاجتهاد ، ثـــم إذا فاء من فكرة إلى ما جاء من عند ربه فوجده بظاهرة ملائما لما حققه ، فليحمد الله على ذلك ، وإلا فليطرق عن التأويل ويقول آمنا به كل مـــن عنـــد ربنـــا " .

ويقول كذلك ـ في رده على فرح أنطون ـ " اتفق أهل الملّة الإسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دل عليه العقل ، ويبقى فى النقـــل طريقـــان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه . والطريق الثانية : تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل[١] " .

فإذا حدث التعارض بين ظاهر النقل والعقل ، وجب تأويل الأول بما يتفق مع الثاني ،وبتعبير عبده نفسه : " إن أراد التأويل لغرض ، كدفع معاند أو إقناع جاحد فلا بأس عليـــه[٢] " . ولقـــد مارس عبده نفسه التأويل ، الأمر الذي جر عليه هجوم الشيخ مصطفى صـــبري لقـــد " فتـــح الأستاذ الإمام طريقا معبدة يقتحمُها رغم خطرها في كل أمن وحصافة ، وهى طريق التـــأويل وتفسير النصوص تفسيرا يؤدى إلى إلغائها . وعند المقارنة لا يبقى جل آيات القرآن إن لم يكن كلها مستحقا لاعتقاد صدقه والاعتصام بمنطوقه ، ويكون الباقي بعد هذا التنازل آيات التوحيـــد كما يكون الكثير الذاهب أدراج الرياح : آيات معجزات الأنبياء وقصصهم وجميع المغيبات مع أن تلك الآيات الباقية ، أعنى آيات التوحيد أيضا تنهار بضربة تشكيك أخرى من العلم الحديث المبنى على التجربة ثم لا يبقى بعد هذا التنقيح الثاني إلا آيات الفضيلة[٣] " .

ونجد مثل هذا الموقف لدى تلميذه السوري رشيد رضا الذي أوضح هذا الموقف قائلاً: " لابد من معرفة الحق بذاته ، فإذا وجدنا نصوص الوحي متعارضة أو وجدنا فيها مـــا يحكـــم العقل ببطلانه ، فعلينا أولا أن ننظر في طريق نقلها ، فإذا كان المخالف منها للعقل أو ســـائر النصوص غير متواتر نحكم ببطلانه وعدم صلاحيته لمعارضة العقـــل أو النـــص المتواتـــر ، ونسلم بالقطعي الذي يخالفه . وإن كان النصان اللذان يخالف أحدهما الآخر متواترين ، فلابـــد من الجمع بينهما بالتأويل " . ولقد قام رشيد رضا نفسه بتأويل بعض الآيات القرآنية التـــي ارتآى أنها قد تتعارض فى ظاهرها مع العقل .

---

(١) الرد على فرح أنطون ، في " الأعمال الكاملة " : ٣ / ٢٨٢ .

(٢) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : ٢٥-٢٦

(٣) موقف المسلم والعالم ١ / ٣٤٩ .

هذه الفكرة ـ تقديم العقل على السمع عند التعارض ـ يرفضها مصطفى صبرى، وعبد الحليم محمود ، وحسن البنا ، وسيد قطب

ويختلف الموقف إلى حد كبير لدى أصحاب الاتجاه الليبرالى الإنسانى الذين قرروا ضرورة البداية بالدليل العقلى بعد انتهاء دور الوحى فى توجيه العقل الإنسانى " فالعقل اساس النقل ، لأن النص لا يثبت شيئا بل هو فى حاجة إلى إثبات فى حين لا يقف شيء غامض أمام العقل ، فالعقل قادر على إثبات كل شيء أمامه أو نفيه . لا مفر إذن من البداية بالدليل العقلى . فالعقل أساس النقل وكون النقل حجة بداية عقلية . إن النقل لا يعطى إلا افتراضات يمكن التحقق من صدقها فى العقل ومن صحتها فى الواقع ، كما يعطى حدوسا يمكن البرهنة على صدقها بالعقل وعلى صحتها فى التجارب اليومية ، ويكون المحك فى النهاية العقل والواقع ، العقل وحده وسيلة التخاطب ، والواقع وحده هو القدر المشترك الذى يراه جميع الناس ، فالاستدلال العقلى والإحصاء الاستقرائى دعامتا اليقين " [1]

إن النص لا يغنى عن الدليل العقلى إن غاب ، ولا ينقص الحجة العقلية إن وجدت والنصوص نفسها إما عقل أو واقع : هى عقل لأنها قائمة على العقل ، ولا يوجد شيء فى النص إلا ما اعتمد على العقل أولا ، والنقل لا يأخذ يقينه إلا من العقل فإذا حدث تعارض بين العقل والنقل قدم العقل

ويتقدم الموقف من السمع خطوات إلى الأمام تؤدى إلى إهماله تماما ، وذلك من خلال التوحيد بين العقل والسمع " إن العلاقة هى علاقة اتحاد كامل أو حتى لا علاقة بالمرة لغياب طرفين متمايزين منفصلين ، فالعقل هو السمع ، والسمع هو العقل ، وتحليل العقل يؤدى إلى اكتشاف أوليات السمع . وفهم السمع يؤدى إلى اكتشاف المبادئ الأولية للعقل والحقائق الثابتة فى الحياة الإنسانية ، العلاقة هي علاقة الحس بالبرهان وكلاهما من عمل العقل ، علاقة الافتراض بالقانون وكلاهما من عمل العقل [2] " بل إن العقل ليس بحاجة إلى الشرع فى معرفة الأشياء ، فهو مقرر ومثبت لحكم العقل وليس بادئا له أو نافيا والسمع تأييد للعقل وتقوية ليقينه وزيادة

---

١ انظر د. حسن حنفي من العقيدة إلى الثورة ، ١ / ٣١

٢ أساس ، ٣ / ٤٧٣ ـ ٤٧٤

للثقة به ، بل إن العقل ليس فى حاجة إلى السمع أصلا حتى يفترض التعارض بينهما ، وخاصة فى آخر مرحلة من مراحل تطور الوحى التى اكتمل بها العقل الإنسانى . ومن هنا، فالتأويل ضرورى للنص حتى لا يفترض تعارضه مع العقل .

وهناك طرف ثالث فى هذه العلاقة بين النص والعقل ، وهو الواقع " فالواقع الذي هو عنصر التوحيد بين النقل والعقل ، لا يفسر النقل إلا باللجوء إلى الواقع ، فقد خرج منه بدليل تطور الوحى وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، ومن ثم يحضر الواقع فى بطن النص وقلبه ووظيفة العقل إيجاد الوحدة بينهما " [1] ، والوحى الإسلامى مجموعة من الأصول العقلية التى هى أيضاً بناء الواقع . الوحى ذاته يتأسس فى العقل ،وفى الواقع وفى الجماعة وفى التاريخ فالواقع يكون بمثابة مرجع صدق وتحقيق لو حدث أى تعارض بين العقل والنقل .

وتأخذ مسالة تقديم العقل على السمع لدى حسن حنفى جانبا سياسيا ، فهى تعبّر لديه عن مسألة علاقة العقل بالسلطة ، فالذين يجعلون النقل أساسا للعقل ويقدمونه عليه عند التعارض هم أهل اليمين ، وأولية النقل على العقل تحمى النظم الرجعية من استعمال الجماهير لوسائل البعث ، ونفسح المجال للسلطة السياسية لاختيار نوعية المتبوع الذى قد يكون الله أو الأمير أو الملك . على حين أن جعل العقل هو الأساس وتقديمه على النقل عند التعارض هو موقف اليسار التقدمى ، إذ تعتمد النظم التقدمية على المبادئ العقلية الشاملة ، وهى فى نفس الوقت قوانين المجتمع ومسار التاريخ . ومن خلال هذا يحاول أن يفسر موضوعات الخير والشر والإلهيات ، والنبوة ، والمعاد ، والإيمان والعمل .

والحقيقة أن فكرة تقديم العقل علىالسمع إن تعارضا تبدو فكرة ضعيفة وبعيدة عن الانضباط ، إذ إن كل متكلم أو فيلسوف يذهب إلى أن كلامه معلوم بصريح العقل ، بل إن مذهبهم يمكن أن يعارض بنقيض دليلهم . يقول ابن تيمية : " إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل ، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين ورفعها رفع للنقيضين ، وتقديم العقل مقنع ، لأن العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ــ فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل ، وإذا أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضا للنقل ، لأن ما ليس بدليل يصلح لمعارضة شيء من الأشياء ، فكان تقديم العقل موجبا

---

(١) السابق : ١ / ١٩٤ .

عدم تقديمه فلا يجوز تقديمه .. وإذا لم يكن دليلا صحيحا لم يجز أن يتبع بحال ، فضلا عن أن يقدم ، فصار تقديم العقل على النقل قدحا فى العقل بانتفاء لوازمه ومدلوله ، وإذا كان تقديمه على النقل يستلزم القدح فيه ..... كان تقديمه عند المعارضة مبطلا للمعارضة ، فامتنع تقديمه على النقل" [1] .

أضف إلى ذلك أن العقل والنقل لا يمكن أن يتعارضا على الحقيقة ، فكلُّ ما قام عليه دليل سمعى قطعى يمتنع أن يعارضه قطعى عقلى .

وحق القول بأن علم الكلام المعاصر ــ إن جاز استخدام هذا التعبير _ بحاجة قوية للعودة إلى التوازن بين العقل والنقل ، دون رفع أحد قطبى المشكلة تماما ، وهو بحاجة كذلك للعودة إلى الأدلة النقلية ، التى هى فى حقيقتها أدلة نقلية عقلية ، والبعد عن الأدلة الجدلية الشائكة أو التأثر بثقافات خارجية ومحاولة قراءة علم الكلام فى ضوئها ، الأمر الذى يفضى إلى تناقض هذه القراءة الجديدة مع مضمون العلم وأهدافه ، بل يجعل منه أداة لهدم العقيدة بدلاً من الدفاع عنها

* * *

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : ١ / ١٧٠ - ١٧١ .